الأستاذ/ عبد الحكيد بن تركية

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية - بوزريعة

المصطلحات في التاريخ
بين التأصيل والتغريب

إذا كانت جميع الأمم تعتبر التاريخ من دروس التربية فتقوم بصياغته بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها، وتحرص على أن يكون الاستفادة من دروس التاريخ أعظم وأشمل من خلال الحفاظ على الروابط متينة مع الماضي القريب والبعيد .

إن التاريخ كما نعلم يدرس ويلقن لأخذ العبر والمواعظ " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" الآية 176 من سورة الأعراف، ولاستخلاص الدروس من الماضي بحسناته و أخطائه و العمل على تجاوز الأخطاء والهفوات في بناء الحاضر و التخطيط بجد للمستقبل. لأن التاريخ كما يقول الفيلسوف الإنكليزي بولنجبروك[1] أفضل دروس التربية، أما شوبنهاور[2] الألماني فكان يعتبر التاريخ عقل الأمم بقوله" إن التاريخ للأمم بمثابة العقل للأفراد" .

والتاريخ عند فيخت[3] يعتبر المربي الأول المكون للأمة، بل أنه وضعه ورفعه إلى نفس مرتبة الإنجيل فكان يقول: "التاريخ ينبغي أن يلقن

للصغار ويدرس للكبار كالإنجيل ، وبنفس التقديس والتعظيم"[4] وعليه فإنني في مداخلتي هذه أريد أن أطرح جملة من التساؤلات وأثير بعض القضايا في تاريخنا، ومنها: قضية استخدام المصطلحات كما وضعها المؤرخون و الكتاب الغربيون ، وهي عديدة سوف اقتصر على أربعة منها فقط: الاستعمار والاصلاحات والكشوفات الجغرافية والشرق الأوسط.

1ـ **مصطلح الاستعمار** colonisation مصدرها الفعل coloniser وتفيد تأسيس مستعمرة Etablir une colonie وهذا أبسط تعريف يمكن أن نجده في أي موسوعة. أما كلمة colonie فتفيد في معناها خروج سكان بلد ما للاستقرار في بلد آخر: Population qui sort d'un pays pour aller en habituer un autre وتفيد معنى أخر هو: ممتلكات دولة في قارة أخرى أي: possesson d'un état Sur un autre continent

إن هذين المفهومين للكلمة لا يتنافيان مع ادعاءات وكتابات المؤرخين الغربيين القائلة: بأن الحركة الاستعمارية جاءت لنشر الحضارة والمدنية. ولنا أن نتساءل أي حضارة ومدنية هذه التي نشروها؟ نعود إلى كلمة استعمار أو استعمر فهي تفيد في اللغة العربية التعمير والبناء مثل: استعمر الله عباده في الأرض أي طلب منهم العمارة. وفي هذا المعنى الآية الكريمة" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" سورة هود الآية 61 .

إن هذا المفهوم يتماشى أيضا مع ادعاءات الفرنسيين الذين أصدروا في 22 جويلية 1834 مرسوما لالحاق الجزائر بفرنسا، وأصبحت بذلك جزءا من ممتلكاتهم فيما وراء البحار. ولكننا عندما نستخدم نحن

المصطلح فنورده على النقيض من ذلك المعنى "أننا نكتب على أنه دمر وقتل وسلب وانتهك واغتصب وخرب واستعبد (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).

إذا علينا أن نستبدل هذه الكلمة ونضع مكانها كلمات ومصطلحات تناسب المعنى الذي نقصده حتى يكون هناك انسجام بين الكلمة ومعناها مثل: استدمار أو استغراب ، الغزو، الاحتلال. ونتخلص بذلك من هذا التناقض والانفصام الذي يعتبر من العقد التي تركها الغزاة الفرنسيون وراءهم.

2ـ **الاصلاحات:** وهذا المصطلح متداول كثيرا في برامج التاريخ، إن أبسط مفهوم للإصلاح هو أنه تقويم شيء ما وجعله في أحسن صورة وشكل. ونفس المعنى نجده للكلمة في اللغة الفرنسية أي :
Reformer supprimer ce qui est nuisible

إننا إذا ماعدنا إلى كتاب تاريخ العالم الحديث والمعاصر 1870ـ1939 المقرر على السنة الثانية ثانوي في طبعته الجديدة 2001ـ2002 ص:259 نجد هذا العنوان: إقدام فرنسا على إصلاحات 04 فيفري1919. فانه بالإمكان أن نسأل أنفسنا متى أقدم الغزاة على الاصلاحات؟ وفي فائدة من كانت هذه الاصلاحات إن وجدت؟ وفي أي مجال كانت هذه الاصلاحات؟

والسؤال الذي يمكن طرحه لماذا نكلت فرنسا بالجزائريين وبالأمير خالد بعدها ونفته من البلاد في 23 جويلية 1923؟ وإذا كانت هناك إصلاحات في الجزائر فلماذا خرج الجزائريون في مظاهرات ماي 1945؟

ومن أجل ماذا استشهد فيها ما يزيد عن 45 ألف شهيد؟ ولماذا تم تفجير ثورة أول نوفمبر 1954 ؟.

ولهذا نقول أنه على الرغم من التطورات التي حصلت في العالم في مختلف المجالات منذ نهاية الحرب العالمية الأولى فإن قوانين 04 فيفري 1919 أبقت الأمور على حالها بالنسبة للأهالي ،وخيبت أمال حتى النخبة المتفرنسة الموالية والمتعاونة مع "الاستعمار". وجوبهت بالرفض من طرف الجميع ولذلك لم يكتب لها أن ترى النور. و هذا ما كتبه أبو القاسم سعد الله: " لم يرد الجزائريون هذه الاصلاحات فقد كانوا يعتبرون الإجراءات الجديدة عقبات فرنسية أخرى في طريق التحرير. وحتى جماعة النخبة الذين لم يطالبوا بالوطنية والاستقلال ولكن بالتجنيس والاندماج لم يريدوا هذه الإصلاحات لأنها لم تكن في مستوى التضحيات التي بذلوها ولا في مستوى الأمل الذي وضعوه في فرنسا... ومن جهة أخرى رفض الكولون تلك الاصلاحات لأنها كانت في نظرهم خطيرة ووخيمة العواقب، فليس من العجب إذن إن كل واحد ة من هذه الجماعات قد بذل جهده خلال العشرينيات من هذا القرن لكي يقضي على هذه الاصلاحات".[5] إن ما قام به الغزاة الفرنسيون في الجزائر يدخل في إطار سياسة "ذر الرماد في الأعين"، وهي الكلمة المناسبة المعبرة عن واقعنا والتي تتماشى مع السياق التاريخي السليم.

3ـ **الكشوفات الجغرافية:** السؤال المطروح: هل هي كشوفات بحرية أم أنها غزوات بحرية؟

إذا كان الأوربيون يزعمون بأنها كشوفات بحرية فذلك جشأنهم، أما بالنسبة لنا فالأمر غير ذلك لعدة عوامل وهي:

أولا: أن منطقة الهند وجنوب شرق آسيا كانتا معروفتين عند المسلمين، وأن وصول فاسكو دي جاما إلى الهند في ماي 1498 كان بمساعدة البحار العربي المسلم أحمد بن ماجد.[6]

ثانيا: إن خروج الأوروبيين كان بهدف الاستحواذ على خيرات الشرق وثرواته على الخصوص الذهب والفضة والتوابل، وهو ما أجاب به فاسكو دي جاما حاكم كاليكوتا عن سبب مجيئهم بقوله:" المسيحية ثم البهارات"، ثم إن حمولة البضائع التي عاد بها دي جاما إلى البرتغال عام1499 كانت قيمتها أكثر من 60 ضعفا لتكاليف البعثة نفسها.[7] وأن نسبة الربح في التبادل وصلت الى300 %، وإذا أخذنا عينة من أهم المواد المتاجر بها كمثال على ذلك القرنفل، وهو أحد أهم المواد المستوردة من جزر الملوك بإندونيسيا حاليا، فثمنه في بداية القرن ال16 م كان يصل إلى دوكاتين[8] للقنطار الواحد، وفي ميناء كاليكوتا يصل إلى 50 دوكات ليصبح سعره في ميناء لندن بإنكلترا 218 دوكات.[9]

إن خروج الأسبان في نفس الفترة كان أيضا من أجل السيطرة على الثروة، وهو ما عبر عنه برنا رد دي كاستيو أحد مرافقي كورتيز في حملته ضد قبائل الأزتيك والمايا بين عامي 1519-1521 بقوله:" جئنا إلى هنا لخدمة الرب ولكن في الوقت نفسه لزيادة ثروتنا".[10]

إن تحالف و تواطؤ المغامرين من أمثال كريستوف كولومبس وفاسكو دي جاما وفيرديناد ماجلان وبيزارو وكورتيز مع عرشي إسبانيا والبرتغال والكنيسة كان واضحا من أجل أن يحقق كل طرف من الأطراف

مصالحه ومآربه. فالعرش الإسباني والبرتغالي كان دعمهما لهذه العملية من أجل الحصول على الذهب ، أما المغامرون فكان هدفهم الحصول على الثروة والسلطة، و أما رجال الدين فكان هدفهم نشر الديانة المسيحية في البلاد الوثنية ومواصلة حروبهم الصليبية مع المسلمين.

كان من نتائج هذا التحالف الرهيب إبادة شعوب بأكملها في بضع سنين ونهب ثرواتها ، فسكان المكسيك حاليا انخفض من 30 مليون نسمة إلى ثلاثة ملايين نسمة بين سنوات1520-1570.[11] أما حجم الثروة التي حولت من العالم الجديد إلى إسبانيا بين عامي1503-1660 فقدرت ب300 طن من الذهب و25000 طن من الفضة.[12]

وحسب أحد الكتاب فان سكان هاييتي (سانت دومينيك) عشية رحلة كولومبس كان عددهم يقدر بنصف مليون نسمة ثم انخفض عددهم إلى 50 ألف في عام 1510 و16 ألف نسمة في عام1530 وبعد عشرة سنوات لم يبق أي فرد منهم[13]،

أما بيزارو فقد قاد حملة إبادة ضد الشعوب الأنكا بين سنتي 1531 -1535. على رأس حملة عسكرية ضمت 180 رجل 37 حصانا، ففي يوم واحد فقط، وذلك في أحد أيام شهر جانفي 1531 أباد سبعة آلاف شخص وبعد عشرة سنوات من أصل سبعة ملاين لم يبق إلا حوالي 02 مليون نسمة[14] إذن بواسطة البارود والمدافع والخيل التي لم تعرفها شعوب المنطقة إلى جانب الخديعة والغش والنهب والغارة وكل الوسائل اللاأخلاقية واللاإنسانية استعملت لإبادة شعوب بأكملها ونهب وسرقة ثرواتها وكنوزها ، إلى جانب المخلفات الأخرى ومنها: نقل أمراض كثيرة من أروبا إلى هذه المناطق ففتكت بالآلاف من السكان ، واغتصاب الآلاف

من النساء الهنود مما خلف أجيال من المولدين métis ويضاف إلى هذه الجرائم جريمة أخرى تتمثل في استيراد الأفارقة السود عن طريق تجارة الرقيق لاستغلالهم، وذلك في إطار ما عرف بالتجارة الثلاثية.[15]

وبعد كل هذا مازلنا ندرس ونلقن أبناءنا ونكتب بأنها كشوفات جغرافية، إنها لم تكن أبدا كذلك بل هي في حقيقتها غزوات بحرية استدمارية.

إن تاريخ 1492 يبقى وصمة عار في جبين الأوروبيين والحضارة الغربية تجاه شعوب الشرق على الخصوص، فمنذ هذا التاريخ لم تتوقف الاعتداءات المختلفة الأشكال والأهداف إلى يومنا هذا، وان تغيرت الأساليب والمظاهر، وعلى شعوبنا ومثقفينا على وجه الخصوص أن يكونوا في مستوى الآمال المعلقة عليهم لاعادة كتابة تاريخنا وتخليصه من كل الشوائب ، وهي مهمة ندرك أنها ليست بالسهلة أو اليسيرة.

4ـ **الشرق الأوسط**: هذا المصطلح أصبح متداولا بكثرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، في حين كان المصطلح الشائع من قبل هو مصطلح المشرق الإسلامي ثم مع ظهور الحركة القومية ظهر مصطلح المشرق العربي. إننا لا نريد الخوض في أيهما أصلح للاستعمال و للتعبير عن الواقع السائد اليوم، لكننا ننبه إلى أن غياب مصطلحي المشرق الإسلامي والمشرق العربي واستعمال الشرق الأوسط يمثل خطرا على مستقبل الأمة الإسلامية لأنه يتضمن اعتراف ضمني بدولة إسرائيل مع إدراكنا أن هذا المصطلح ولد مع ولادة إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية. وعليه إذا أردنا المحافظة على تاريخنا وخصوصيتنا أن نبتعد عن استخدام هذا المصطلح والإبقاء على ما كان مستخدما من قبل.

الهوامش :

(1)- بولنجبروك: (1678-1761) فيلسوف وسياسي إنكليزي مشهور بقدرته الخطابية، من بين مؤلفاته "رسائل في دراسة التاريخ" وهو القائل:" لقد بان لي أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان على الفضائل الخاصة والعامة" . أنظر ج هر نشو: علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد عبادي، ط2، دار الحداثة، بيروت، 1982، ص: 20 وص: 105.

(2)- شوبنهاور: فيلسوف ألماني (1788-1860) ترك التعليم في جامعة برلين سنة 1831 وتفرغ للتأليف والبحث،

(3)- فيخته: فيلسوف ألماني من مواليد 1762، فر من برلين عشية غزو نابليون لها، وعاد إليها في 1807، وألقى خلالها خطابا حول الأمة الألمانية وعين عميدا لجامعة برلين سنة 1811 إلى وفاته عام1814 .

(4)- مولود قاسم نايت بلقاسم، مجلة الثقافة، عدد 95، سبتمبر- أكتوبر 1986،الجزائر، ص: 37.

(5)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، 1900-1930 ،ج2، ط4 ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص: 280 .

(6)-رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف، عالم المعرفة، عدد أكتوبر1987، الكويت، ص: 22.

(7)- نفسه، ص: 25.

(8)- دوكات: قطعة نقود ذهبية كانت تستخدم في أكثر بلدان أوروبا في تلك الفترة.

(9)- هارولد نويبرت، النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث، ترجمة د. محمد الزعبي و د. ممتاز تريدي، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص: 43.

(10)- نفسه، ص: 56.

(11)- نفسه، ص: 54.

(12)– نفسه،ص:52 .

(13)- GUY DE BOSSCHERE: clefs pour le tiers monde, édition seghers, Paris, 1975 p,53

(14)- ibid, p:53.

(15)- التجارة الثلاثية الأضلاع: بعد إبادة الهنود الحمر كانت بداية استيراد الرقيق(العبيد) من إفريقيا بهدف الشروع في استغلال أمريكا، فكانت السفن تخرج من موانئ أوروبا محملة بالأقمشة وبعض الأواني والهدايا المختلفة من البارود والبنادق الرديئة لتقدم لزعماء القبائل في إفريقيا حيث يشحن العبيد على متن السفن نحو أمريكا، و هناك تشحن بالسكر والقطن وغيرهما من المواد الرائجة لتعود بها إلى أوروبا .

لمزيد من التفاصيل أنظر: د. والتر رودني: أوروبا والتخلف في إفريقيا، ترجمة د. أحمد القصير، سلسلة عالم المعرفة، ديسمبر 1988، الفصل الرابع على وجه الخصوص.